التخبط والفوضـــى...
ثـم مـــاذا بعـــد؟!

وصل التطور الفكري والإبداعي في الغرب إلى مرحلة مـــا بعد الحداثة: إلى التفكيكية وما بعد التفكيكية. وليس ذلك محصلة (تخمة حضارية) فقط، بل هو قبل كل شـــيء (مؤشـــر انتقـــال جذري) على مستوى الوضع الإجمالي للوجود البشري برمته.

فالغرب. منذ قرنين على الأقل. فرض ولا يـــزال يفـــرض هيمنته على مختلف جوانب ذلك الوجود البشري. وهيمنة ثقافتـــه هي، في النتيجة، إحدى الركائز الأساسية لهيمنته.

وإحدى النتائج الكبرى لتلك الهيمنة الثقافيـــة علـــى الـــوطن العربي هي إحباط المشروعات النهضوية القائمة أساســـاً علـــى (تحديث الثقافة العربية). وقد بات المعنيـــون جميعـــاً بحـــداثتنا الثقافية يعترفون بفشل تلك المشروعات النهضوية، ويبحثون عن (بدائل!) يعتقدون، أو يخمنون، أنها ربما تيسر أمر خلاصنا مـــن أعباء مشكلات القرن القادم.. القرن الذي نوشك أن ندخله ونحن لا نزال مثقلين بالمشكلات الكثيرة المتفاقمة والعالقة من القـــرن العشرين الذي نعيش الآن أيامه الأخيرة. والمتأمل في (المشـــهد الثقافي العربي) اليوم يجد التخبط سمته الأساسية، ويجد الفوضى نمط أدائه. وفي التخبط والفوضى تنعدم المعيارية الموضـــوعية

في التقويم؛ إذ هي لا ترتكز إلى مرجعية غائية تنتج منظومة قيم جمالية مهمتها إظهار الدلالات المتناغمة مع الحاجات الحقيقية لمجتمع أو" خليط مجتمعات" يسعى إلى إزاحة الهيمنة ومنعكساتها ومستجراتها، وإلى الاستجابة الصحيحة للتحديات الحضارية الكبرى التي صارت اليوم تهدد كل مجتمع، فقد مشروعه النهضوي، بالإفناء أكثر ما تعده بالبقاء.

وفي التخبط والفوضى تبرز (غزارة الكمّ) وعجزه عن التراكم الواعد بنقلة نوعية نحو مستوى جديد ملائم من الرؤية الشمولية لطبيعة وجودنا في العالم الراهن المضطرب، ولمعناه ومتطلباته ووسائله، إن كنا لا نزال نمتلك فعلياً بعض تلك الوسائل!.. وفي التخبط والفوضى تتورم (الأنوات، ج:أنا) لمنتجي الفكر والأدب والفن ليصير هذا التورم بديلاً مرضياً لكون المنتج عنصراً فاعلاً في (مجموعة) تحمل مشروعاً وتسعى لإقراره. ولنقارب بالأمثلة المعممة كل ما سبق أن ذكرناه من ملاحظات نعترف بأنها عامة أيضاً. والمقاربة تستدعي الرجوع قليلاً إلى الوراء. ففي مجالات الفكر وتياراته حفل النصف الثاني من هذا القرن بالاستقرار بعد اضطراب، وبالاضطراب بعد استقرار؛ إذ شهد الوضع الفكري العربي منذ الخمسينيات تراجعات للتيارات الأصولية، وتقدماً لتيارات ما سمي الفكر التقدمي سواء منها: الماركسية أو القومية اليسارية والمعتدلة.. وظل التصارع قائماً بين هذه التيارات جميعاً: الواحد منها ضد الكل، ولكن بشيء من التفاعل. خصوصاً بين تيارات الفكر التقدمي.. والكل ضد التيارات الليبرالية الغربية المختلفة، دون أن يعني ذلك وجود خلط وفوضى في تلك الصراعات يصلان إلى حد انعدام الرؤية السليمة المتبادلة، مع القوة

المضمرة لكل من التيارات الليبرالية والأصولية رغم الواجهة الماركسية أو اليسارية، القومية وغير القومية، التي بدت. في وقت ما، كأنما قد حققت نصراً فكرياً نهائياً!!

وفي الواقع كان ثمة نوع من (العمى الأيديولوجي) قد طغى قرابة عقدين: السبعينيات والثمانينيات، فأبرز "الدوغمائية" المتمرسة وتوابعها الموسومة باليسارية والتقدمية على أنها قد باتت (سيدة الساحة الفكرية) دون منازع أو منافس ذي شأن! وبالطبع، كان على الأدب أن ينسجم مع هذا "المناخ الفكري" العام، أو المعمم، ظاهرياً. وهو قد فعل!.. ويمكن اعتبار حركة الحداثة الشعرية مثلاً: قصيدة التفعيلة وما يسمى "قصيدة النثر"- والتحفظ دائماً هو على التسمية وحدها ليس غير- أنها بنت "مرحلة الحرب الباردة" التي كان إطارها النظري عندنا مستقراً على القاعدة الدوغمائية القائلة: "أن انهيار الامبريالية والانتصار النهائي للاشتراكية هما سمة العصر)!! وبالطبع، يمكن ملاحظة ذلك في الإنتاج الروائي والمسرحي والتشكيلي.. وحتى السينمائي إبان تلك الفترة. وفيما كانت الاتجاهات الفنية الأخرى: أصولية أو ليبرالية، تكيف ذاتها ظاهرياً مع متطلبات ذاك المناخ الفكري السائد كان الفكر الأصولي والليبرالي يحفر عميقاً في التكوين الهش لبنيان الفكر التقدمي عموماً، والذي سرعان ما انحسرت سيادته ليس مع انهيار المنظومة الاشتراكية بل مع صعود السيد غورباتشوف إلى قيادة الاتحاد السوفييتي السابق مدججاً بأطروحاته عن البيروسترويكا والغلاسنس (أي الشفافية). وقد تكشف في عقد التسعينيات مأزق الفكر العربي، ومعه مأزق الإنتاج الإبداعي، بصورة أقل ما يقال فيها: إنها محزنة ومضحكة في آن معاً. الفكر الأصولي الآن -بنوستالجيته

المألوفة، أي برغبته في استعادة حرفية لماضٍ لا يمكن استعادته كذلك –وصل في إحدى مظاهر شططه إلى دموية سادية فظة، كأنما هي تعبير عن طبيعته المرضية، الفصامية والتدميرية. الفكر المتمركس والتقدمي انهار، ونزع غالبية ممثليه القدامى إلى الهجرة باتجاه الغرب: جسدياً وفكرياً، أو فكرياً وحسب..

ولكن الأمر كله هو انقلاب على الذات لدى هؤلاء وعودة إلى الليبرالي، في وقت اعتصم فيه آخرون بعودة إلى نمط خاص بهم من التدين ذي الطابع التصوفي، فكأنما هم يعاقبون أنفسهم على مواقفهم الفكرية السابقة. ويبدو انتصار الفكر الليبرالي ماحقاً، وهو لا يصلنا في صيغته الغربية الصافية وتأسيساً على منطلقاته الفلسفية الأوربية بنسختها الأصلية، بل يصلنا عبر (المستغربين) أصلاً، والتابعين لهم لاحقاً من (ماركسيي أيام زمان) وتقدميّيها المهاجرين المذكورين أعلاه. الآن، ثمة ما يشبه الصراخ الدائم من أولئك المستغربين واللاحقين المهاجرين وهم يطالبون (الدولة العربية!!)، التي يدينونها بعبارات عمومية "مرموقة!" رغم أنها، بضبابيتها، لا تقول شيئاً قائماً على الاستنتاج من تحليل موضوعي لمفردات الواقع: بالحرية، والعقلانية، والعلمانية، والديموقراطية.. إلى آخر المفردات المستنسخة من القاموس الليبرالي الغربي، دونما تحديد حقيقي أو مقنع لمعاني هذه المفردات، وكيفيات تحقيقها من قبل (الدولة العربية!)، المدانة، وفي شروط الأوضاع المجتمعية العربية الراهنة باعتبارها أوضاعاً غير طبيعية، أو باعتبار أنها أوضاع ناجمة عن التشوهات التي فرضتها الهيمنة الامبريالية الغربية.

والطريف أنه، مع مداهمة (العولمة) لفكر ممثلي التيارات

جميعاً، راح (الشباب!!) يحللون بسرعة البرق، ويضعون الخطط الاقتصادية وغير الاقتصادية (لإنقاذ العرب) ولإيجاد موقع لهم على (خرائط) القرن القادم. وبأية وسيلة؟! (بالدولة العربية!!) ذاتها: المدانة لديهم والموصومة سلفاً (بالقمعية) وبكونها (دولة أمنية) على حد تعبير العديد من أفضل ممثلي أولئك الدعاة الفكريين المتخبطين في هجرتهم، أو السادرين في تغربنهم. وباعتبار (العولمة) تدل من حيث صياغتها الاشتقاقية العربية على القسر والإكراه فإنه لمن الطريف فعلاً أن نقرأ أو نسمع أن أحدهم أو بعضهم من ماركسيي (الزمان البائد) يدعو إلى (العوربة)!!.. وكيف؟!..

بالتعاون مع (الأوربة)!! أي نعم!!

ما نريد أن نستنتجه من هذا كله هو أن ثمة تفكيكاً فكرياً عربياً قد حدث.. وهذا في الحقيقة يوازي تفكيكاً بنيوياً اجتماعياً قد يكون قيد الإنجاز في أفضل الاعتبارات، سواء تم التعبير عن ذلك بالنكوص التزمتي نحو الماضي بمفرداته التي فات أوانها، أو بالبحث الفردي عن (حرية!) تفتقر إلى أية منظومة قيمية ذات صلة بترابط اجتماعي بنيوي حقيقي. وببساطة إنها (حرية الضياع) بين المحق الذي هو محصلة إجمالية لمركب شروط اجتماعية وحضارية تمتد مما لا نعرفه من الماضي إلى الراهن القائم، وبين العجز أمام مداهمة هذه (العولمة) العجائبية ووسائلها وغاياتها المتخيلة تخيلاً صائباً أو واهماً.. وبينهما يقع العجز عن تحقيق متطلبات البقاء البيولوجي المحض والانكسار أمام القيم المادية في أكثر صيغها ابتذالاً. وما نريد أن نخلص إليه هو: كيف يظهر ذلك كله في نتاجاتنا الأدبية والفنية، باعتبار أن الأدب والفن يمثلان روح العالم فعلاً؟!

ثلاثة أمثلة سأسوقها على عجل كجواب:

الإنتاج الدرامي العربي. إنه يخاطب "أميين" لغاية الربح بتكريس أميتهم متلاعباً بالتاريخ والرموز ومعطيات الواقع تلاعباً غير مسؤول.

القصة القصيرة جداً جداً والسفسطة التي تثار حولها، وقصيدة (اللقطة) أو (الومضة) حيث هما يبدوان ببساطة: المظهر الفني لفعالية التفكيك وللتفكيكية التي وصلتنا متأخرة قليلاً.. ربما!!. نصوص الهذر المفتوحة على اللاشيء، حيث ينعدم (النظام، وأبجدية الأداء الفني المجنّس) مثلما تنعدم الدلالة وتنكسر الرؤية والرؤيا انكساراً يشبه التلاشي.. وهي نصوص بدأت تظهر كبدائل.. ولكن!! وبالطبع، هذا الوضع المأزوم، المتخبط الفوضوي، يحتاج إلى ماهو أكثر بكثير من مجرد مقالة سريعة.

❑❑